موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية

د. جورج حبيب باوي

محاضرات في تجسد الكلمة

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة الرابعة

www.coptology.com

Coptology

محاضرات في تجسد الكلمة

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة الرابعة

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٠٩

www.coptology.org

مقدمة

هل كانت خطية آدم هي اشتهاء الإلوهة، وهل كانت هي ذات سقطة الشيطان؟

لم أكن أريد أن أتعرض لموضوع التأُّله مرةً أخرى؛ خصوصاً بعد أن أصدرنا دراستنا عن الشركة في الطبيعة الإلهية[١] فنحن نعتقد أنها أوفت الموضوع حقه. ولكن، ولأن موضوع اشتهاء الإلوهة هذا، وإن كان يرتبط – في ذهن القائلين به – بشكل أو بآخر بموضوع الشركة في الطبيعة الإلهية، إلاَّ أننا نشير من البداية إلى أنه موضوعٌ غير معروف بالمرة في كتابات الآباء، فلم يقل أحدٌ منهم إن خطية آدم كانت هي اشتهاء الإلوهة. وعلى ذلك فقد ألزمنا ذلك التعليم الخطير الذي قدَّمه الأنبا شنودة الثالث في مجلة الكرازة، ثم أعاد نشره في كتابه "بدع حديثة"[٢]، ألزمنا أن نجيب على هذا السؤال؛ لأن ما قيل يُعد إدعاء يهدم أحد جوانب الخلاص، وهو القيامة من الأموات، أي عدم الموت، أو التأُّله، وهو ما حدث لناسوت الرب يسوع نفسه. فإذا كان التأُّله خطية، وكان اشتهاء الإلوهة هو سقطة الشيطان نفسه، ومن بعده آدم، فهل يعني ذلك أنه تَّمت شيطنة المسيح نفسه؟ وبالتالي هل يمكن أن نعتبر أن الرب يسوع جاء لكي يجعلنا "شياطين"، وبالتالي نبقى في حالة السقوط إلى الأبد؟!!!.

---

(١) هذه الدراسة منشورة على موقع www.coptology.com

(٢) راجع كتاب بدع حديثة ص ١٤٤ وما بعدها حيث يقول تحت عنوان بنفس شهوة الألوهية أغرى الشيطان الإنسان الأول: "وهكذا إذ اشتهى الإنسان مجد الألوهية – ولو في صفة واحدة منها – فلذلك فقد مجد البشرية التي كانت له".

– ١ –

ما هو العنصر الإلهي في الإنسان؟

لا يمكن بأي حال من الأحوال لأي أحدٍ مهما كان أن يدَّعي علينا بأننا قلنا إن تأليه الإنسان يعني أن يصبح الإنسانُ إلهاً بالطبيعة[١]؛ لأننا لم ننكر في أي مرة، وفي كل ما قيل، وما كُتب، بل أكدنا أن المخلوق يبقى مخلوقاً. فهو "آتٍ من العدم"، وهي عبارة ذات دلالة هامة تؤكد أنه لا يملك وجوداً خاصاً به، قادراً على البقاء الأبدي.

لقد كررنا مراراً عبارة القديس أثناسيوس في تجسد الكلمة: "**فالإنسانُ فانٍ بطبيعته لأنه خُلِقَ من العدم**" (تجسد الكلمة ٤: ٦)، وهنا علينا أن نتوقف أمام عدة ملاحظات هامة:

١– إن البقاء ليس قدرةً إنسانيةً؛ لأن المقصود بالبقاء هنا هو البقاء الأبدي في حياة لا تعرف الموت، وهو – تحديداً – التحوُّل إلى ما جاء به الرب يسوع المسيح. وخلف هذا البقاء توجد حقيقة الكيان الإنساني الذي يقف بين الموت والحياة.

٢– عندما تعرَّض القديس أثناسيوس لموضوع حرية الاختيار التي أعطاها الله للإنسان، نجد أنه عرض للأمر هكذا: "إن الله رأى عدم قدرة الإنسان أن يبقى دائماً في الحالة التي خُلق فيها، أعطاه نعمةً إضافيةً"، وهي الصورة الإلهية (٣: ٣). ولأن "إرادة البشر يمكن أن تميل إلى أحد الاتجاهين – الخير أو الشر – سبق فدعَّم النعمة المعطاة لهم بوصيةٍ، ومكان الفردوس (وجودهم)" (٣: ٤).

---

(١) راجع ما جاء في بدع حديثة ص ١٤٥ تحت عنوان تأليه الإنسان معناه أن يتصف بالصفات الإلهية، حيث يقول الأنبا شنودة: "أن يصير الإنسان إلهاً يعني أنه يصير غير محدود، مالئ السموات والأرض....إلخ".

وهنا، لو افترضنا جدلاً أن خطيئة الإنسان كانت هي اشتهاء الإلوهة، لكان الحديث عن حرية الاختيار وإمكانية تحول الإنسان من الخير إلى الشر هو المجال المناسب تماماً الذي يمكن للقديس أثناسيوس أن يذكر فيه أن سقوط الإنسان كان هو اشتهاء الإلوهة، لكن القديس أثناسيوس الذي درس التسليم الآبائي جيداً، لا يعرف اجتهاد الأنبا شنودة الثالث — فليس لدينا في تراثنا الشرقي الأرثوذكسي مَن قال إن السقوط كان اشتهاء الإلوهة، والسبب في ذلك هو أن الآباء جميعاً – حتى في الغرب – لم ينكروا أن الإنسان مخلوقٌ على "صورة الله ومثاله" (تك ١: ٢٦).

ومن هنا يتضح لنا أن المدخل الصحيح لفهم مسألة سقوط الإنسان، هو الوعي الصحيح بمعنى خلق الإنسان على صورة الله ومثاله، وذلك لما بين الموضوعين من ارتباط عضوي لا يسمح بفهم أي من الموضوعين فهماً صحيحاً إذا شاب فهم أحدهما خللٌ ما.

وهكذا يمكننا أن نكتشف حجم المشكلة التي تترتب على محاولة تحويل صورة الله في الإنسان إلى مجرد صورة "للبر والقداسة"، وهي المحاولة التي كرسها الأنبا شنودة الثالث[1]، سيراً على خطى يوحنا كالفن ولوثر وكل قادة حركة الإصلاح، ثم دعاة حركة النهضة البروتستانتية في القرن الـــ ١٨، فهذه المحاولة تجعل من الصورة الإلهية مجرد مجموعة من الصفات الأخلاقية التي يجب أن يتحلى بها الإنسان ليكون على صورة الله في "السلوك". لكن هذا الادعاء لا علاقة له بالمرة بلاهوت الكنيسة الأرثوذكسية؛ لأن البر والقداسة هما صفات الله نفسه، هذه الصفات توهب لنا في المسيح لأنه هو ذاته "بر الله".

---

(١) يقول الأنبا شنودة في كتابه بدع حديثة ص ١٥٣: "إن الله عندما خلقنا على صورته كشبهه، لم يخلقنا في طبيعته ...إنما خلقنا الله على صورته في الطهارة، وفي السلطان، وفي حرية الإرادة، وفي العقل وما أشبه".

ولعلنا نلاحظ أن "القداسة" عند الإنجيليين بالذات هي "عدم الخطية"، ولكن عند كل الآباء، القداسة هي شركة في قداسة الله نفسه. والقداسة هي صفة خاصة بالله "القدوس"، أي الفريد الذي لا مثيل له[١]. لذلك يتعذر علينا أن نرى في تسبحة السمائيين في أشعياء ٦: ١ وما بعده: "قدوس، قدوس، قدوس"، أن الملائكة يقولون: الذي بلا خطية، الذي بلا خطية ... فهذا ليس تمجيداً لله ولا إكراماً له، بل وليس هذا تسبيحاً من حيث الأصل.

فالتقديس هو عطية الله لنا في ابنه، وهي العطية التي ردت الإنسان إلى صورة المسيح نفسه، القدوس الذي بلا خطية؛ لأننا نشترك في قداسة الله (عب ١٢: ١٠). فقد جاء الرب يسوع كرأس الخليقة الجديدة التي وُهبت حياة أبدية لا علاقة لها بالسلوك الأخلاقي، بل تعطى من الآب في ابنه يسوع المسيح (١ يو ١: ١ – ٣).

٣– إذا دققنا النظر في عبارات القديس أثناسيوس كما وردت في الأصل، بعيداً عن براهين وأدلة الحقد وغليان العواطف الذي يحاول طمس التعليم الكتابي والآبائي نفسه، لوجب علينا أن نتوقف أمام التعبيرات الآتية ودراستها بكل دقة ممكنة:

– أعطاهم شركة في قوة كلمته (٣: ٣)

– الإنسانُ فانٍ بطبيعته لأنه خلق من العدم، إلاَّ أنه بسبب خلقته على صورة الله الكائن (٤: ٦)،

– كان ممكناً أن يعيش مثل الله (٤: ٦).

ως Θεος as God

---

(١) إن كلمة قدوس في العبرية هي قدوش، وهي تعني التعالي والانفصال والتخصيص، وبالتالي فالقداسة هي ما يميز الله ويخصصه ويفصله ويجعله أعلى وأسمى من كل المخلوقات، ولذلك فكلمة قدوس لا تعني صفة بل شخصاً، ولذلك يقول الله في سفر أشعياء: "أنا الرب إلهك قدوس إسرائيل مخلصك" (أش ٤٣: ٣). فالقداسة هي ذات الطبيعة الإلهية، ولما كان الآب هو الآب القدوس (يو ١٠: ١٤)، فإننا عندما نولد منه (يو ١: ١٢)، نصبح الأبناء القديسين الذين على صورته ومثاله.

– الله لم يكتف بأن يخلقنا من العدم، ولكنه وهبنا أيضاً بنعمة اللوغوس أن نحيا حياة إلهية" (٥: ١).

κατα Θεον ξην ημιν to live divine life

فإذا كان الإنسان قد وُهِبَ أن يحيا حياةً إلهيةً، وكان ممكنا أن يعيش مثل الله، فأين إذن اشتهاء الإلوهة؟!!!

ويبدو بشكل أوضح من العبارة التالية:

– إن "الكلمة سكن فيهم" (٥: ٢).

ويؤيد القديس أثناسيوس ذلك بكلمات سفر الحكمة "الله خلق الإنسان لعدم فساد وجعله على صورة أبديته" (٥: ٢). ويؤكد أثناسيوس في (٥: ١) شركة الإنسانية في اللوغوس بقوله: "لكنهم بنعمة اشتراكهم في الكلمة"، فكيف يشترك الإنسان في اللوغوس دون أن يكون ذلك شركة في الطبيعة الإلهية؟!!

وما أكده القديس أثناسيوس من اشتراك الإنسان في اللوغوس في الفصل الخامس، عاد وشدد عليه في الفصل الحادي عشر من كتاب تجسد الكلمة، الأمر الذي يعني أن ما قاله المعلم السكندري ليس زلة لسان، وهكذا نجده يشدد على مسألتين:

الأولى: هي "لأن (الله) صالح في ذاته، فقد جعل لهم (للإنسانية) نصيباً في صورته الذاتي (الذي هو) ربنا يسوع المسيح" (١١: ٣).

الثانية: وهي – حسبما اعتاد القديس أثناسيوس – إن الخلق على الصورة نعمة: "بسبب تلك النعمة – فإنهم عندما يرون تلك الصورة، أي كلمة الله يمكنهم عن طريقه أن يصلوا إلى معرفة الآب" (١١: ٣).

النعمةُ إذن هي صورة الابن، وهي شركةٌ في الابن، وهي مصدر معرفة الإنسان بالله الآب. الصورة هي عطية نمو "نعمة الوجود حسب الصورة كانت كافية لأن تجعلنا نعرف الله الكلمة، ونعرف الآب بواسطته" (١٢: ١). الصورة هي أن

يكون الإنسان عاقلاً، أي لديه الحس والإدراك الذي يمكِّنه من معرفة الله، لا أن يعيش كالحيوانات غير العاقلة (١٣: ١ – ٢).

وهكذا يؤكد القديس أثناسيوس أن اشتراك الإنسان في اللوغوس، وسكنى الكلمة في الإنسان هو أحد عناصر الخلق الأساسية على صورة الله ومثاله.

الخلق على الصورة الإلهية استدعى تجسد الكلمة:

تفشل حركات الإرساليات، والبروتستانتية – بشكل خاص – في فهم أو استيعاب حاجتنا إلى الإله المخلص، وإن كنا سنعود إلى هذه النقطة بالذات في المحاضرة الخامسة، لكن يجب أن نقف أمام عبارة معلمنا الكبير:

"كان من اللائق أن يأخذ الكلمةُ جسداً قابلاً للموت حتى يمكن أن يبيد الموت في جسده ويجدد خلقة البشر الذين خُلقوا على صورة (الله)" (١٣: ٩).

وأيضاً:

"أتى إلى عالمنا كلي القداسة ابن الآب، إذ هو صورة الآب، لكي يجدد الإنسان الذي خُلق سابقاً على صورته .." (١٤: ١).

والمقصود بالتجديد هنا هو تجديد كيان الإنسان، ورد الصورة التي فسدت إلى ما كانت عليه، أي "إعادة ميلاد النفس وتجديد خلقتها بحسب الصورة" (١٤: ٢).

ويعيد المعلم السكندري نفس الشرح مؤكداً على أن التجديد هو تحولٌ في كيان الإنسان، هو تجديد طبيعة، لا مجرد تغيير أخلاقي:

"لم يكن ممكناً أن يحوِّل الفاسد إلى عدم فساد إلاَّ المخلص نفسه الذي خلق منذ البدء كل شيء من العدم" (٢٠: ١).

فالقدرة الخالقة للرب هي القوة التي تحول الفاسد، وبالتالي فهي ليست "دفع الدين" ثمناً للآب بالمعنى السائد في العصر الوسيط، أو إرضاء العدل الإلهي. هذه

مفاهيم لا وجود لها في الفكر المسيحي شرقاً وغرباً قبل العصر الوسيط[١].

ومن ثمَّ

"لم يكن ممكناً أن يعيد خلق البشر ليكونوا على صورة الله إلاَّ الذي هو صورة الآب" (٢٠: ١)؛ لأن إلوهية الكلمة لا تتجلى فقط في ردّ الصورة، بل وفي تغيير الطبيعة أيضاً، وبالتالي: "لم يكن ممكناً أن يجعل الإنسان المائت غير مائت إلاَّ ربنا يسوع المسيح الذي هو الحياة ذاتها" (٢٠: ١).

ويتجلى ذلك بشكل أوفر في التشبيه الذي يقدِّمه أثناسيوس في فصل ١٤ وهو جديرٌ جداً بالانتباه؛ لأن التحول الكياني لا يتم بالإيمان وحده – كما يشاع في أوساط حركات النهضة الإنجيلية المعاصرة التي تمتد جذورها إلى نهضة القرن ١٨ – ١٩ – وإنما هو بنقل ملامح المسيح نفسه للإنسان، هو تجديدٌ للطبيعة:

"لو كانت هناك صورة لشخص مرسومة على قماش مثبَّت على لوحة خشب، وتلطخت الصورة من الخارج بالأقذار. مما أدى إلى اختفاء ملامحها، ففي هذه الحالة لا بُد من حضور صاحب الصورة نفسه ثانيةً لكي يمكن إعادة تجديد الصورة على نفس قماش اللوحة ... على هذا النحو، فقد أتى إلى عالمنا كلي القداسة ابن الآب؛ لكي يجدد الإنسان الذي خُلِقَ مرةً على صورته ويخلص ما قد هلك" (١٤: ١ – ٢).

على أننا ننبه إلى أننا لا نستطيع أن نستوعب التعليم الرسولي — الآبائي إذا حصرنا الاهتمام كله في تجسد الكلمة وحده، فهناك ثلاثة موضوعات مرتبطة لا يمكن

---

(١) لا يعرف فكر العصر الوسيط – الذي شكَّل عناصر فكر الأنبا شنودة الثالث – تجديد الطبيعة الذي شرحه القديس أثناسيوس، وإنما يعني به مجرد التغيير الأخلاقي، ولذلك فحسب الأدب الفلكلوري الشائع عندما يسأل أحدهم أحداً:"اتجددت يا أخ"؟ يكون المقصود هو: هل آمنت بالمسيح، وليس التجديد بمعنى تغيير الكيان طبقاً لما شرحه معلمنا الكبير. وما يُقال عن التجديد، يُقال أيضاً عن التقديس.

فصلها عن بعضها:

الأول: هو الصورة ومكونات هذه الصورة.

الثاني: رد وتجديد الصورة للإنسان.

الثالث: ما عمله المسيح يسوع الكلمة لأجلنا.

ذلك أن الصورة، أي الإنسان، ليست إلاَّ صورة مخلوقة من العدم، ولكنها كُوِّنت من "لا شيء" لتكون:

١– لها كيان ووجود مماثل لكيان الله نفسه.

٢– إدراك أو معرفة تجعل الإنسان قادراً على تأمل الآب (ليس بالمعنى المعاصر في العظات الشعبية)، بل بمعنى رؤية الآب بواسطة الابن، حيث اشترك الإنسان في قوة الكلمة أو الابن، شركة تجعل الإنسان مثل ظل الكلمة يتبعه دائماً.

٣– لها حياة إلهية، وقد شرحَ القديس أثناسيوس هذا الموضوع في إيجاز في تجسد الكلمة، بعد أن كان قد شرحه بتفصيل أوفى في الرسالة إلى الوثنيين. (إعادة ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية هو المشروع الجديد الذي ينتظر د. جوزيف فلتس).

وإذا عدنا إلى الفصل الثاني من الرسالة إلى الوثنيين وقرأنا بدقة هذه العبارات لأدركنا أن الجانب الإلهي في الحياة الإنسانية يكمن في الحياة الإدراكية أو العقلية (ليس بالمعنى المعاصر) بل بمعنى الرؤيا الإنسانية لله بواسطة اللوغوس، حيث يقول أثناسيوس:

"جعل الإنسان مدركاً وعارفاً للوجود الحقيقي بواسطة التشبُّه به (الكلمة) وأعطاه معرفةً محددةً بأبديته إذا استمر كائناً حسب المثال، وأن لا يترك بالمرة معرفته بالله أو شركة القديسين" (٢: ٥ – ١٠)[١]. ويحدد أثناسيوس هذه المعرفة بأنها:

"القوة العاقلة الخاصة التي منحها له الكلمة ابن الآب" (المرجع السابق).

---

(١) راجع الفقرة الثانية من الفصل الثاني في الترجمة العربية التي أنجزها القمص مرقس داود للرسالة إلى الوثنيين.

فقد وُهِبَ الإنسان "أن يعرف وأن يرى الآب في الكلمة ابن الآب ويفرح بتأمله (الثاؤريا) ويتجدد بالشوق للكلمة" (المرجع السابق)، ويسند المعلم السكندري هذا بقول الرب نفسه: "طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله" (متى ٥: ٨).

فالإنسانُ كان قادراً على أن يسمو برؤية تدبير و"عناية الله" لكي يرى الأمور السمائية التي تعلو على العالم أو الكون، وهي العبارة التي نراها في الكتابات النسكية Θεια Θεωριας وهي المعرفة التي يقول عنها القداس الغريغوري: "أعطيتني علم معرفتك"، أي الأمور اللاهوتية، أو الثاؤريا.

تلك هي الحياة الإنسانية التي يكمن جانبها الإلهي في الحياة العقلية، أي في الإدراك والحس الذي يأتي من معرفة الإنسان بالكلمة وبواسطة "شركة الإنسان في قوة الكلمة".

الصورة إذن هي وجودٌ، أو كينونة على، أو حسب صورة الله الكائن، وفي ذلك يقول أثناسيوس: "حصل البشر على وجودهم من الله الكائن" (تجسد الكلمة ٤: ٥). هذه الكينونة تجعل الإنسانَ قادراً على أن يقاوم – بفضل عطية ونعمة الصورة – العودة إلى العدم أو "الفناء الطبيعي ويبقى في عدم فناء" (٤: ٦)، ولكن هذه المقاومة تتوقف على البقاء في الشركة حسب عبارة سفر الحكمة (٦: ١٩).

هذه هي الحياة الإلهية التي كانت ممكنة لولا سقوط آدم. ولكن حتى بعد السقوط لم يَعُد آدم إلى العدم، ليس بقوة بقاء ذاتية، بل بسبب صلاح الله – كما قال أثناسيوس نفسه: "كان من غير اللائق أن تهلك الخليقة وترجع إلى العدم بالفساد، تلك الخليقة التي خُلقت عاقلة، وكان لها شركة في الكلمة" (تجسد الكلمة ٦: ٤). وكانت غواية الشيطان لآدم تتعارض مع صلاح الله، إذ أن ذلك يعد بمثابة انتصار للشيطان.

إن تلاشي الخليقة وعودتها إلى العدم كان "غير لائق على الإطلاق"، ولذلك يُعد الفصل السادس في كتاب تجسد الكلمة أعظم ما كُتب عن الصلاح الإلهي، فهذا

الفصل لا مثيل له في أدبيات العصر الوسيط، أو في تلك الكتابات القبطية التي سقط كاتبوها تحت وطأة فكر العصر الوسيط الأوروبي.

في هذا الفصل يؤكد القديس أثناسيوس على أن كل ما حدث من غواية، وتحول من الحياة والكينونة حسب صورة الله، وكذلك سيادة الموت سيادة قانونية بسبب حكم صدر قبل السقوط، وكان بمثابة تحذير للإنسان، وفساد الصورة، وانغماس البشر في خطايا أكثر ... كل ذلك كان يتعارض مع أمرين:

أ– غاية خلق الإنسان على صورة الله.

ب– صلاح الله.

من له إذناً للسمع فليسمع

-٢-

خطورة التعليم بأن السقوط كان هو اشتهاء الإلوهة

لم نسمع ولم نقرأ أن السقوط كان هو "شهوة الإلوهة" على النحو الذي ذكره الأنبا شنودة الثالث، وقد رأينا أن ذلك يبدو مستحيلاً لثلاثة أسباب رئيسية:

١- شركة الإنسان في قوة الكلمة.

٢- سكنى الكلمة في الإنسان.

٣- معرفة ورؤية الإنسان لله الآب في كلمته ربنا يسوع المسيح.

وهنا لا يوجد مجال "للتخمين" بالمرة؛ لأن هذه العناصر الثلاثة معاً لا يمكن أن تكون شيئاً غير صورة الله ومثاله، أي يسوع المسيح ابن الآب الذي خُلق الإنسان حسب صورته.

وهكذا، وبدون أي تردد نلاحظ أن الادعاء بأن شهوة الإلوهة كانت هي السقوط، يضعنا أمام أحد اختيارين كلاهما أخطر من الآخر:

١- هو ادعاءٌ ينطوي على إنكار تام لإلوهية المخلص الأقنوم الثاني.

٢- أو في أقل القليل يعني أن الإنسان لم يُخلق على صورة الكلمة.

واضحٌ إذن أن هذا الادعاء لم يجئ عن معرفة ودراسة، بل جاء نتيجة "عدم التروي" وتسلط الغضب وسيادة العداوة، والافتقار إلى عناصر التكوين العقيدي الأرثوذكسي. ولأن هذا الادعاء قد تحول إلى اتهام للآباء جميعاً، وإلى الذين خاطروا بحياتهم ومستقبلهم وأسرهم وأولادهم ودخلوا مجال الدراسات الآبائية والتاريخية، لذا فقد تعذَّر علينا أن نصمت؛ لأن المسألة هنا ليست مسألة شخصية، بل هي هدم للإيمان نفسه. ولذلك علينا أن نزيد الأمر إيضاحاً:

أولاً: إذا كان الإنسان قد نال قوةً إلهية وسكنى الكلمة، بل ورؤية الآب في الكلمة، فهو يبقى في سعادة وفرح إذا حفظ الوصية وظل كائناً حسب هذه الصورة التي هي نعمة إلهية تمكنه من الحياة "حسب الله" أو أن يحيا "حياة إلهية"، فالفرق بين التعبيرين لا يجب أن يخفي الحقيقة.

على أنه إذا كان الإنسان كائنٌ مثل الله الكائن، فهذا لا ينفي أن هناك فارقاً ضخماً وهائلاً، هو أن كينونة الإنسان نعمة، وأن حرية الاختيار عند الإنسان يمكن أن تميل للخير أو الشر، بينما الله غير ذلك على وجه الإطلاق.

ثانياً: كان الإنسان يدرك ذاته بواسطة معرفة الله مثل "**مرآة**" – وتعبير **المرآة** هو للمعلم السكندري نفسه في الرسالة إلى الوثنيين[١] – وعندما يتأمل ذاته، يرى في ذاته الابن الكلمة ويشتاق إليه وتتجدد حياته بالشوق نحو الله[٢]. فلم تكن لدى الإنسان قبل السقوط معرفة مزدوجة *Dualistic* انقسمت فيها المعرفة بين الذات والله، وإنما انقسام المعرفة وازدواجها حدث بعد السقوط، ومن هنا دخلت الفوضى وفكرة الموت والجهل بالله كخالق، وبالتالي تولَّدت الوثنية عن تلك الفوضى، وهو الموضوع الذي احتل عدداً كبيراً من فصول الرسالة إلى الوثنيين. فكيف كان يمكن للإنسان أن يشتهي الإلوهة، بينما هو يحيا حياةً إلهيةً، وله شركة مع اللاهوت؟ هذا مستحيل، وهذا – في حد ذاته – يعد رداً كافياً على مَن يدعي أن الآباء لم يعرفوا

---

(١) يقول القديس أثناسيوس: "لأنها، أي النفس البشرية – بمضاعفات الشهوات الجسدية – أخفت **المرآة** التي فيها، والتي بها وحدها تستطيع رؤية صورة الآب" (الرسالة إلى الوثنيين ٨: ٢ الترجمة العربية). كما يقول: "لأن النفس خُلقت على صورة الله ومثاله، كما تبين الكتب الإلهية حين تقول على لسان الله "نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا". لذلك أيضاً فإنها حينما تتخلص من كل أدران الخطية التي تغطيها وتستبقي فقط شبه الصورة في طهارتها فإنه إذ تستنير هذه الصورة استنارة كاملة ترى النفس يقيناً – كما في **مرآة** – صورة الآب، أي الكلمة، وبه تصل إلى فكرة الآب، الذي نعلم أن صورته هي المخلص" (المرجع السابق ٤٣: ٣).

(٢) الرسالة إلى الوثنيين، الفصل الثاني: ٢، ٣، ٤ من الترجمة العربية

موضوع التأله[١].

ثالثاً: كيف يشتهي الإنسان الإلوهة، بينما هو "شريك الكلمة"، ونال منه نعمةً وقوةً خاصة – كما سبق وذكرنا من قبل – لكي يدرك الآب نفسه، أي – حسب تعبير النسك المسيحي الأرثوذكسي – "الثاؤريا"، أي تأمل الثالوث، أو "الدهش"، وهي المعرفة التي ردها إلينا يسوع المسيح نفسه.

ولذلك، فعندما نقول إن التعليم بأن السقوط كان هو اشتهاء الإلوهة، ينطوي على عدم إيمان بإلوهية المخلص يسوع المسيح، فإننا لا نتجنى على أحد ولا نتهم أحداً جزافاً دون دليل، لذا يمكننا حصر عناصر هذا الاتهام في الآتي:

١– إن المسيح يسوع – كما رأينا – ردَّ إلينا صورة الله، ردَّ إلينا الحياة الإلهية؛ لأنه الكلمة الخالق، فلو كان تجديد الإنسان لا يشمل رد الصورة الإلهية، لما كانت لدى الله نفسه حاجة إلى أن يرسل ابنه المخلص الإلهي لكي يجدد الخليقة مرةً أخرى. بل يصبح التجديد عن طريق التعليم وتغيير السلوك ممكناً – وهو ما هو سائد عندنا الآن – وهذا هو الإنجيل المزيف الموازي للإنجيل الحقيقي ذلك الذي يؤكد أن التجديد هو نقل الحياة غير الفاسدة – الحياة عديمة الموت – الحياة الأبدية، إلى الإنسان بواسطة الفادي الله الكلمة.

٢– ولعل أفظع ما قيل بهذا الخصوص هو أن شركتنا في الطبيعة الإلهية هي مثل سقوط الشيطان وهيرودس[٢] وهو ما يعني أن المسيح يسوع ابن الآب تحول إلى شيطان آخر، وهو ما ينادي به شيعة "المورمون" قائلين إن الابن له المجد هو الأخ

---

(١) يقول الأنبا شنودة الثالث في كتابه "بدع حديثة" ص ١٤٥: "محال أن أحد الآباء نادى بهذا التأله".

(٢) راجع الأنبا شنودة الثالث، بدع حديثة ص ١٤٤ حيث يقول: بنفس شهوة الإلوهة أغرى الشيطان الإنسان الأول، وفي ص ١٤٥ يقول: من خطورة التأله نذكر مأساة هيرودس الملك.

الأكبر للشيطان "لوسيفر". ونحن نربأ بالقائلين بهذا الادعاء أن يصلوا إلى هذه الدرجة من الانحدار، ولكنهم تركوا أنفسهم للغضب والجهل فأدى بهم ذلك إلى ما أدى.

٣- ومن هنا يظهر بكل وضوح أن القائلين بهذا الادعاء يؤمنون بأن الإنسان الذي يشتهي الإلوهة لم يكن على صلة بالله منذ خلقه، وأن شركته في قوة الكلمة "اللوغوس هي شركة في مخلوق، وأن سكنى الكلمة – اللوغوس هي سكنى مخلوق في مخلوق، وهو ما يعني – على أقل تقدير - الفشل في فهم وإدراك خلق الإنسان على صورة الله ومثاله، وما يعنيه هذا الخلق في الكتاب المقدس والآباء.

لقد كنا نريد أن نعفي القائلين بهذا الادعاء من هذا الاتهام، ولكنهم لم يتركوا لنا الفرصة للحوار، أو حتى للدفاع عنهم.

-٣-

الأصول الرسولية للشركة في صورة الكلمة

يقول القديس بولس الرسول عن المؤمنين:

"سبق فعرفهم

سبق فعينهم

ليكونوا مشابهين صورة εικων ابنه

ليكون هو بكراً بين إخوةٍ كثيرين" (رو ٨: ٢٩).

وحتى لا يضيع التعليم الرسولي بسبب اندفاعات عاطفية غرائزية، يضع الرسول ملامح هذا التحول إلى صورة الابن:

عيَّنهم

دعاهم

بررهم

مجدهم (رو ٨: ٣٠).

فالإنسان لا يرتقي أبداً إلى هذا بقواه مهما كانت، بل هي دعوة إلهية. ويجب أن ننتبه حتى لا تضيع منا الكلمة الرسولية الأصلية والتي تُرجِمَت إلى "مشابهين" لأن هذه الترجمة لا وجود لها في الأصل اليوناني.

وإنما الكلمة اليونانية أقوى بكثير من متاهات "الشبه" و"التشبه" وهي كلمة συμμορφους وهي مكونة من مقطعين συμ - μορφος من كلمة μορφη التي تعني شكل – قامة – ملامح – صورة مطابقة للأصل.

وهذه الكلمة نجدها في مواضع عديدة في الكتاب المقدس، فحسب السبعينية

يقول أشعياء (٤٤: ١٣) إن الإنسان يخلق الأصنام على صورته أو شكله الإنساني . μορφη αδρος

وفي التجلي تغيَّرت ملامح أو شكل الرب يسوع على الجبل μεταμορφοσαι.(مت ١٧: ٢، مر ٩: ٢).

كما أن الرب قد أخذ "شكل العبد" μορφη بينما هو حسب مقامه وطبيعته الإلهية μορφη شكل أو صورة الله (فليبي ٢: ٦ – ١١).

فما هو المقصود بالكلمة συμμορφους؟

يجيب الرسول نفسه على هذا السؤال بأنه هو ذلك التحوُّل الكبير الذي يصنعه الرب يسوع المسيح القادر على أن يُخضع كل الأشياء، ولذلك فهو سوف يغيِّر شكل جسد تواضعنا

to be conformed σγμμορφον τω σωματι

ليكون له ذات ملامح جسد مجده، وهذا هو المقصود بعبارة "ليكون على صورة جسد مجده" (فيلبي ٣: ٢١) والترجمة الإنجليزية أقوى conformed وحسب ترجمتنا القبطية المهجورة:

Ⲛ̀ϣⲟⲛϥ ⲙ̀ⲙⲟⲣⲫⲏ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡⲥⲱⲙⲁ

وهو ما جعل الترجمة الموحدة الصادرة عن دار الكتاب المقدس تقول:

"ليكونوا على **مثال** صورة ابنه" (رو ٨: ٢٩).

وفي نص فيلبي ٣: ٢١ (يجعله على صورة جسده).

واستخدمت الترجمة العربية كلمة "هيئة" (مرقس ١٦: ١٢)، وهي نفس الكلمة في (لوقا ٩: ٢٩)؛ لأن "هيئة" الرب تغيَّرت على جبل التجلي (مرقس ٩: ٢)، وهكذا يجب أن نفهم "صورة أو هيئة" العبد التي أخذها الرب عندما تجسد (فيلبي ٢: ٦ وبعدها).

والفعل اليوناني μορφοω / يُشكِّل، وهو وإن كان خاصاً بالفن إلاَّ أنه ورد

في (غلاطية ٤: ١٩) "ليتشكل أو يتكوَّن أو يتصوَّر المسيح، وهو ما لا يمكن بالمرة أن يحدث على مستوى هذه الخليقة. ولذلك فحتى الهرطقة الأريوسية لم تتجاسر – رغم شراسة قادتها – على أن تدخل حلبة الصراع حول الخليقة الجديدة التي كُوِّنت من جديد في يسوع المسيح. ولكن ما نلفت إليه النظر هو أنه عندما يضاف المقطع συμ – sym إلى الكلمة يصبح واضحاً أن هذا يتم مع المسيح وبه. يؤكد هذا المقارنة بين:

آدم	المسيح
وكما لبسنا صورة الترابي	سنلبس أيضاً صورة السماوي (١كو ١٥: ٤٩)

هذه الصورة ليست صورة المخلوق، ولكنها صورة الخالق الذي تجسد لأجلنا.

الإنسان حسب الخليقة الأولى	الإنسان في المسيح
خلعتم الإنسان العتيق مع أعماله	لبستم الجديد الذي يتجدد للمعرفة حسب صورة خالقه .. بل المسيح الكل وفي الكل (كو ٣: ١٠ – ١١)

وإذا قرأنا بدقة (٢كو ٣: ١٨) فإننا نرى حسب التعليم الرسولي:

نحن جميعنا ناظرين مجد الرب ..

نتغير إلى تلك الصورة عينها

من مجد إلى مجد.

فلم تظل صورة الرب، صورة مخلوقة فقط، بل تحوَّلت إلى مجد اللاهوت، وظلت الطبيعة الإنسانية ممجدة في المسيح لأن تجسد الرب لم يلاشِ "إتحاد الطبيعتين".

هذا التحول نراه أيضاً في أطول نص عند رسول المسيح عن الحياة الآتية (١كو ١٥: ٣٥ – ٥٣)[١]، وهو عن تحول الطبيعة الترابية غير المفتداة. وفي الأدب المسيحي المعاصر يستخدم علماء اللاهوت – لا سيما الأرثوذكس – تعبير *Christification* أي تحول الإنسان إلى المسيح.

(١) "لَكِنْ يَقُولُ قَائِلٌ: «كَيْفَ يُقَامُ الأَمْوَاتُ وَبِأَيِّ جِسْمٍ يَأْتُونَ؟». يَا غَبِيُّ! الَّذِي تَزْرَعُهُ لاَ يُحْيَا إِنْ لَمْ يَمُتْ. وَالَّذِي تَزْرَعُهُ لَسْتَ تَزْرَعُ الْجِسْمَ الَّذِي سَوْفَ يَصِيرُ بَلْ حَبَّةً مُجَرَّدَةً رُبَّمَا مِنْ حِنْطَةٍ أَوْ أَحَدِ الْبَوَاقِي. وَلَكِنَّ اللهَ يُعْطِيهَا جِسْماً كَمَا أَرَادَ. وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْبُزُورِ جِسْمَهُ. لَيْسَ كُلُّ جَسَدٍ جَسَداً وَاحِداً بَلْ لِلنَّاسِ جَسَدٌ وَاحِدٌ وَلِلْبَهَائِمِ جَسَدٌ آخَرُ وَلِلسَّمَكِ آخَرُ وَلِلطَّيْرِ آخَرُ. وَأَجْسَامٌ سَمَاوِيَّةٌ وَأَجْسَامٌ أَرْضِيَّةٌ. لَكِنَّ مَجْدَ السَّمَاوِيَّاتِ شَيْءٌ وَمَجْدَ الأَرْضِيَّاتِ آخَرُ. مَجْدُ الشَّمْسِ شَيْءٌ وَمَجْدُ الْقَمَرِ آخَرُ وَمَجْدُ النُّجُومِ آخَرُ. لأَنَّ نَجْماً يَمْتَازُ عَنْ نَجْمٍ فِي الْمَجْدِ. هَكَذَا أَيْضاً قِيَامَةُ الأَمْوَاتِ: يُزْرَعُ فِي فَسَادٍ وَيُقَامُ فِي عَدَمِ فَسَادٍ. يُزْرَعُ فِي هَوَانٍ وَيُقَامُ فِي مَجْدٍ. يُزْرَعُ فِي ضُعْفٍ وَيُقَامُ فِي قُوَّةٍ. يُزْرَعُ جِسْماً حَيَوَانِيّاً وَيُقَامُ جِسْماً رُوحَانِيّاً. يُوجَدُ جِسْمٌ حَيَوَانِيٌّ وَيُوجَدُ جِسْمٌ رُوحَانِيٌّ. هَكَذَا مَكْتُوبٌ أَيْضاً: «صَارَ آدَمُ الإِنْسَانُ الأَوَّلُ نَفْساً حَيَّةً وَآدَمُ الأَخِيرُ رُوحاً مُحْيِياً». لَكِنْ لَيْسَ الرُّوحَانِيُّ أَوَّلاً بَلِ الْحَيَوَانِيُّ وَبَعْدَ ذَلِكَ الرُّوحَانِيُّ. الإِنْسَانُ الأَوَّلُ مِنَ الأَرْضِ تُرَابِيٌّ. الإِنْسَانُ الثَّانِي الرَّبُّ مِنَ السَّمَاءِ. كَمَا هُوَ التُّرَابِيُّ هَكَذَا التُّرَابِيُّونَ أَيْضاً وَكَمَا هُوَ السَّمَاوِيُّ هَكَذَا السَّمَاوِيُّونَ أَيْضاً. وَكَمَا لَبِسْنَا صُورَةَ التُّرَابِيِّ سَنَلْبَسُ أَيْضاً صُورَةَ السَّمَاوِيِّ. فَأَقُولُ هَذَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ: إِنَّ لَحْماً وَدَماً لاَ يَقْدِرَانِ أَنْ يَرِثَا مَلَكُوتَ اللهِ وَلاَ يَرِثُ الْفَسَادُ عَدَمَ الْفَسَادِ. هُوَذَا سِرٌّ أَقُولُهُ لَكُمْ: لاَ نَرْقُدُ كُلُّنَا وَلَكِنَّنَا كُلُّنَا نَتَغَيَّرُ. فِي لَحْظَةٍ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ عِنْدَ الْبُوقِ الأَخِيرِ. فَإِنَّهُ سَيُبَوَّقُ فَيُقَامُ الأَمْوَاتُ عَدِيمِي فَسَادٍ وَنَحْنُ نَتَغَيَّرُ. لأَنَّ هَذَا الْفَاسِدَ لاَ بُدَّ أَنْ يَلْبَسَ عَدَمَ فَسَادٍ وَهَذَا الْمَائِتَ يَلْبَسُ عَدَمَ مَوْتٍ".

– ٤ –

سقوط الشيطان
في كتابات الآباء أثناسيوس الرسولي، وأوغسطينوس

أولاً
عند القديس أثناسيوس الرسولي

أ– حسب المقالة الثالثة ضد الأريوسيين فقرة ١٧

كانت حجة الأريوسيين هي أن كلمات الرب في (يوحنا ١٧: ١١)، ثم (يو ١٧: ٢٠ – ٢٣) عن وحدة جوهر الآب والابن هي أيضاً إعلان عن البشر.

نص الأريوسيين كما ورد في الثاليا

"إن كنا نحن نصير واحداً في الآب، هكذا أيضاً يكون الابن مع الآب، وهكذا أيضاً يكون هو في الآب، فكيف يجوز لكم الاستدلال من قوله "أنا والآب واحد" و"أنا في الآب والآب فيَّ" أن الابن هو من ذات جوهر الآب ومساو له؟ هذا يستدعي أمرين:

إما أن نكون نحن أيضاً من ذات جوهر الآب.

أو أن يكون (الابن) غريباً عن الجوهر مثلما نحن أيضاً غرباء عنه".

رد القديس أثناسيوس:

"أنا لا أرى في كلامكم الباطل هذا سوى وقاحة بلا حدود وجنون شيطاني لأنهم مثل الشيطان يقولون "نصعد إلى السموات ونصير مثل العلي" (أش ١٤: ١٤).

إن ما يعطى للإنسان بالنعمة يجعله الأريوسيون مساوياً لإلوهية الواهب. لقد سمعوا أن البشر سيصيرون أبناء لله، فظنوا بذلك أنهم هم أنفسهم مساويين للابن الحقيقي بالطبيعة. وعندما يسمعون من المخلص: "لكي يكونوا واحداً كما نحن" (يوحنا ١٧: ١١)، يخدعون أنفسهم ويتوقحون لدرجة أنهم يظنون أنهم يصيرون مثل الابن في الآب والآب في الابن، غير معتبرين أن سقوط أبيهم الشيطان قد حدث بسبب هذا التخيل".

وقبل أن يُسرع الذين يخطفون الكلمات ويقطعون العبارات من سياقها، نقول لهم إن المعلم العظيم أكد أن سقوط الشيطان كان **خيالاً كاذباً** جعله يظن أنه يمكن أن يكون **مساوياً لله**. إضافةً إلى هذا، فإن القديس أثناسيوس لم يذكر أن هذا هو سقوط آدم.

يوجد فرق كبير بين النعمة والطبيعة سبق وأشرنا إليه. وهنا لم يكن سقوط الشيطان اشتهاء الإلوهة حسب إدعاء الأنبا شنودة الثالث، بل رغبة الشيطان في أن يكون مساوياً لله.

ب- حسب المقالة الثالثة ضد الأريوسيين فقرة ١٩ - ٢٠

وفي الفقرات التي تلي فقرة ١٧ من المقالة الثالثة لا يتوانى المعلم الكنسي عن تأكيد ما يلي:

* "يوجد ابنٌ واحدٌ حسب الطبيعة، وهو الابن الحقيقي الوحيد الجنس" (ضد الأريوسيين ٣: ١٩).

ولكن هذا لا يقود إلى إنكار النعمة، إذ يقول بعدها مباشرة:

* "هكذا نصير نحن أيضاً أبناء،

لكن

ليس مثله هو بالطبيعة وبالحق،

بل بحسب نعمة ذاك الذي دعانا.

ورغم أننا بشرٌ من الأرض،

مع ذلك نصير آلهةً ليس مثل الإله الحقيقي أو كلمته" (المرجع السابق ٣: ١٩).

وأيضاً:

* "نحن به نصير أبناء بالتبني وبالنعمة مشتركين في روحه (يوحنا ١: ١٢)" (المرجع السابق ٣: ١٩)[١].

وأيضاً:

"لم يقل: "لكي يكونوا واحداً كما نحن. لكي نصير كما هو، بل كما أنه هو الكلمة وهو في أبيه، هكذا نحن أيضاً نتخذ أباه مثالاً لنا".

وأيضاً:

* "فنحن طبعاً لسنا أبناء كالابن ولسنا آلهة مثله هو نفسه" (ضد الأريوسيين ٣: ٢٠)[٢].

---

(١) راجع الترجمة العربية التي نشرها مركز دراسات الآباء بالقاهرة في نوفمبر ١٩٩٤ ص ٤٢ – ٤٣.

(٢) المرجع السابق ص ٤٣.

ثانياً

سقوط الشيطان، والشركة في الطبيعة الإلهية عند القديس أوغسطينوس

أولاً: سقوط الشيطان

نظراً لأن الادعاء بأن سقوط آدم كان هو شهوة الإلوهة، يفتقر إلى أي أساس تاريخي، وإنما هو محض افتئات على كلمة الله، وجهل بتراث الآباء، فإننا لا يمكن أن نترك هذه النقطة بالذات دون تمحيص وتدقيق.

كان أوغسطينوس قد كتب شرحاً لسفر التكوين عنوانه: "عن سفر التكوين ودحض المانويين وشرح المعنى الدقيق لسفر التكوين".

ويقع هذا الشرح في ١٢ كتاباً. كُتب دفاعاً عن الخلق، وسقوط الشيطان، وسقوط آدم. وبدايةً ننبه إلى أنه بالرغم من استخدام القديس أوغسطينوس للكلمة اللاتينية "Litteram"، إلاَّ أنها لا تعني المعنى الحرفي، بل حسب دراسة الأب De Ludal تعني المعنى التاريخي أو الحقيقي أو الدقيق وليس المعنى الحرفي[١].

في الكتاب الحادي عشر[٢]: فصل ٣١ و٣٢ يقدم أوغسطينوس سقوط

---

(١) الكاردينال Henri De Ludal من أعلام اللاهوتيين الكاثوليك وله عدة مؤلفات نحتاج إلى ترجمتها إلى العربية وبالذات المجلدين الذين صدرا في ترجمة انجليزية بعنوان:

Medieval Exegesis: The Four senses of scripture. 1998.

وقدم له أستاذ اللاهوت في جامعة Yule في الولايات المتحدة Robert L. Wilken

(٢) الترجمة الإنجليزية الحديثة مجلد ١: ٣ أعمال القديس أوغسطينوس ص ٤٤٧ – ٤٤٩

...

الشيطان بالعودة إلى أشعياء (١٤: ١٢ – ١٥) عن "زهرة الصبح" الذي قال إنه "سيصعد إلى ما فوق السحاب وأصير مثل العلي"، فيقول أغسطينوس: "هذه الكلمات شُرِحَت بشكل عام على أنها قيلت ضد الشيطان الماثل في ملك بابل"، ثم يقتبس كلمات حزقيال (٢٨: ١٢ – ١٣)[١] ويشرح كلمات النبي على نفس المنوال، ولكن ما يهمنا هنا هو هذه الفقرات:

"منذ يوم خُلقت مع الكاروب الذي هو عرش الله، والكلمة "كاروب" تعني "المملوء بالمعرفة" وأنا جعلتك على جبل الله، أي الكنيسة (حسب النص) "وسمعتك من جبل قدسي" (مزمور ٣: ٤) وأنت تسير بين الحجارة الملتهبة (النارية) أي القديسين لأن لهم "حرارة الروح" (رو ١٢: ١١) وحجارة حية (١بط ٢: ٥٢).

ثم يقول في الفقرة ٣٣:

"إنه إمَّا أنه كان من اللحظة الأولى عند خلقه سقط بسبب الكبرياء الشريرة من السعادة التي كان يمكن أن يحتفظ بها إذا أراد، أو أن الملائكة الأقل رتبة في السعادة والفرح لأنهم يعيشون في العالم السفلي (المادي) لأن معرفتهم أقل من غيرهم من الذين يعيشون في رتبة أعلى وسقط هو مع هؤلاء بواسطة الكبرياء الشريرة..".

وهكذا يتضح لنا أن خطية الشيطان هي الكبرياء وليست اشتهاء الإلوهة. والفرق واضح بين أن تبقى القوات السمائية مستنيرة بقوة الروح القدس وثابتة في القداسة وهي إحدى صفات الله كما يقول القديس باسيليوس في الرسالة ٨: ٢. وفي

A translation of the 21st century

(١) "يَا ابْنَ آدَمَ, ارْفَعْ مَرْثَاةً عَلَى مَلِكِ صُورَ وَقُلْ لَهُ: هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: أَنْتَ خَاتِمُ الْكَمَالِ, مَلآنٌ حِكْمَةً وَكَامِلُ الْجَمَالِ. كُنْتَ فِي عَدْنٍ جَنَّةِ اللَّهِ. كُلُّ حَجَرٍ كَرِيمٍ سِتَارَتُكَ, عَقِيقٌ أَحْمَرُ وَيَاقُوتٌ أَصْفَرُ وَعَقِيقٌ أَبْيَضُ وَزَبَرْجَدٌ وَجَزْعٌ وَيَشْبٌ وَيَاقُوتٌ أَزْرَقُ وَبَهْرَمَانُ وَزُمُرُّدٌ وَذَهَبٌ. أَنْشَأُوا فِيكَ صَنْعَةَ صِيغَةِ الفُصُوصِ وَتَرْصِيعِهَا يَوْمَ خُلِقْتَ".

الرسالة ١٠٥ يقول باسيليوس أيضاً: "الروح القدس في جوهر الله، ينبوع التقديس، القوة التي تعطي الحياة، النعمة التي تكمل والذي به ينال الإنسان التبني، والمائت يصبح خالداً .. هو قوة ملكوت الله".

كذلك في الرسالة ١٥٩ يقول: "الروح هو الذي يُعلِّم، المخلوق يتقدس والروح هو الذي يُقدس وإذا سمينا الملائكة ورؤساء الملائكة وكل القوات السماوية قديسين، فالكل يأخذون تقديسهم من الروح" (راجع الترجمة الإنجليزية ص ٢١٢).

مقارنة سقوط آدم، بتواضع الرب وإخلائه لذاته

يقول أوغسطينوس في العظة ٢٦٤ على عيد الصعود:

"يا إخوتي وأخواتي الأحباء ماذا يقصد الرسول بقوله: "لم يحسب مساواته لله سرقة؟ لأنه (الابن) مساوٍ في الطبيعة. ولكن مَن الذي حُسبت مساواته لله سرقة؟ هو الإنسان الأول الذي قيل له "إذا أكلت تصير مثل الله" (تك ٣: ٥) لقد أراد بالسرقة أن يرفع ذاته إلى مساواة الله، وكانت عقوبته هي أنه فَقَدَ الخلود. أما ذاك الذي قيل إنه لم يسرق هذه المساواة .. (فيلبي ٢: ٧ – ٨) مجلد ٣: ٧ ص ٢٢٨).

لكن في نفس العظة الفقرة ٤ ص ٢٣٠ يقول عن المسيح الرب:

"أنا ابتعد عنكم بالشكل الخارجي ولكنني أملأكم بذاتي في القلب. وأنا أقصد هل يمكن للمسيح أن يدخل القلب باللحم وحسب اللحم؟ أليست هي إلوهيته التي تجعله يملك القلب، لأنه حسب الجسد يتكلم للقلب بالعينين، ويعلِّم ما نسمعه من الخارج (بواسطة الأذنين)، أمَّا عندما يسكن فينا، فإنه يحولنا داخلياً ويُحضرنا للحياة التي منه والتي تتكون منه ..." ص ٢٣٠.

وفي العظة ٢٦٥ على الصعود يقول:

"سوف يأتي للبشر ليس كمجرد إنسان، ولكن سوف يأتي كإله متجسد.

سوف يأتي كإنسان حقيقي وكإله لكي يجعل البشر آلهة" (ص ٢٣٦ نفس المجلد).

ثانياً: تألُّه الإنسان في يسوع المسيح:

في شرح المزمور ٤٩: ٢ حسب الفولجاتا وهو يقتبس نص مزمور ٨١ "أنا قلت أنتم آلهة"، يقول أُغسطينوس:

"من الواضح أن الله يدعو البشر "آلهة" بالمعنى أننا تألهنا بواسطة النعمة، وليس لأننا وُلدنا من جوهره (الله)".

وبعد ذلك:

"بالإضافة إلى عمله فينا، الذي "يبررنا" هو نفسه الذي "يؤلِّهنا"؛ لأنه عندما "يبررنا" يجعلنا أبناء الله".

ثم:

"إذا كنا قد جُعلنا أبناء الله، فقد جُعلنا آلهة، ولكننا آلهة بنعمته التي بها نلنا التبني".

وفي شرح مزمور ١١٧: ١١ حيث يشرح معنى "يمين الرب"، يقول:

"قوة فائقة حقاً كنَّا في حاجة إليها لكي ترفعنا من الأسفل، لكي تؤلِّهنا نحن المائتين، لكي تجعل الضعفاء كاملين، وتمنح المجد للساقطين والانتصار للمتألمين" (الترجمة الحديثة مجلد ٣: ١٩ ص ٣٣٧).

وفي العظة ١٦٦: ٤ يقول للشعب:

"ها أنتم ترون أن الله يريد أن يجعل كل واحد منكم إلهاً، ليس بالطبيعة مثل الذي وُلِدَ من الآب، ولكن بعطية التبني".

ومثل آباء الكنيسة الشرقية يعظ أوغسطينوس الشعب ويقول:

"لكي يجعل آلهةً من البشر، تجسَّد وهو الله" (عظة ١٩٢: ١).

ولم يفصل أوغسطينوس بين التبرير ونعمة التبني والتأله، إذ يقول كما مر بنا سابقاً في شرح المزمور ٤٩:

"الذي يبرر هو نفسه البار وليس آخر. ومن يؤلِّه هو ذاته الله ... الذي يبرر هو ذاته الذي يؤلِّه؛ لأنه بالتبرير يجعلنا أبناء الله".

-٥-

الحجم الحقيقي للمشكلة

لم تكن المشكلة في المصطلحات، ولا في الترجمة، ولا في الاختلاف حول شرح كلمات الكتاب المقدس ... الخ. المشكلة الحقيقية هي خلق تهمة "الشرك" من العدم، أي مما لا وجود له لا عند الآباء، ولا في كتابات الأب متى المسكين، ولا في الدراسات الموجزة التي نشرناها، ولا حتى في الترجمة الصحيحة لكلمات يونانية مثل theosis وغيرها. أبداً. المشكلة هي خلق تهمة من لا شيء، ثم محاولة تثبيت هذه التهمة بالكذب وبالتدليس. لم نقرأ نصاً أو عبارة تقول إننا سنكون مثل الابن في الآب، بل عندما يُستعلن المسيح الإله المتجسد "سنكون مثله" (١يوحنا ٣: ٣)، وهي عبارة الرسول يوحنا التي لم يتجاسر أحد من المدعين علينا كذباً أن يقدم لها شرحاً آبائياً كتابياً. ولكن لم تكن هذه العبارة الرسولية وغيرها دعوة لأن يصبح الإنسان مثل الله موجود في كل مكان قادراً على كل شيء .. الخ من قائمة اتهامات كاذبة بكل ما تحمله كلمة "كذب" من معان. لكن توظيف الكذب لمصالح شخصية أجرى صياح الغوغاء ضد الإيمان نفسه، وهكذا تم حشد الغوغاء ضد التعليم الرسولي الآبائي، ووُضِعَ أمام الغوغاء ما تقبَّله الغوغاء، وهو إننا "عبيد الله" كما قال اللاهوتي الأوحد، لأن الخوف من الشرك قابع في وجدان من عاش تحت حكم الإسلام وثقافته قرابة ١٤٠٠ سنة.

الوجه الأول للمشكلة:

هو عدم الإيمان بالتجسد. وعدم الإيمان بالتجسد يتساوى مع إنكار الشركة

في الطبيعة الإلهية، وخلف هذا وذاك تقبع الحقائق التالية:

١– الإصرار على التعليم النسطوري القائل بأننا نأخذ ناسوت المسيح فقط؟ وصاحب هذه العبارة لا يمكن أن يؤمن بأن الابن المتجسد هو نفسه الذي يعطي بيديه جسده ودمه لكي نشترك في حياته الإلهية المتجسدة.

٢– إنكار مقنَّع للإتحاد الأقنومي، وهو ما ظهر في إنكار تألُّه ناسوت الرب نفسه، أي إنكار الإتحاد الأقنومي، هذا الاتحاد الذي جعل ناسوت الرب واهباً للحياة، والقيامة، وغفران الخطايا، وشفاء الجسد والروح، ليس لأنه مجرد "ناسوت"، بل لأنه جسد الكلمة الحي والمحيي. فالجسد الواهب الحياة للعالم، ليس مجرد جسد؛ لأن طبيعة الأجساد بما فيها جسد المسيح نفسه لا تهب الحياة، ولكن جسد المسيح يهب الحياة لأنه جسد الكلمة الحي الذي أقام روح الآب جسده من الأموات (رو ٨: ١١) لكي يؤكد لنا أن الجسد مستقلاً عن أقنوم الكلمة لا قيامة له ولا قيامة فيه، ولكن لأنه – كما ردد القديس أثناسيوس في أكثر من موضع – "جسد الحياة"، لأنه بسبب اتحاد الكلمة به صار هذا الجسد واهباً للحياة.

٣– وقد ظهر عدم الإيمان بالتجسد، وإنكار الاتحاد الأقنومي في الآتي:

أولاً: في إنكار أننا نأخذ ونشترك في إلوهية الرب في سر الإفخارستيا؛ لأن هذا يؤيد الشركة في الطبيعة الإلهية، وبالتالي ينحرف المسار حتى يصل إلى إنكار السر المجيد نفسه خوفاً من الإيمان بالشركة.

ثانياً: في إنكار تألُّه الناسوت كواهب لحياة الابن نفسه، وهو الجانب الكهنوتي لكهنوت الرب يسوع كوسيط بين الله والبشر "الإنسان يسوع المسيح". وصياغة الرسول جديرة بالاهتمام: "لأَنَّهُ يُوجَدُ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَوَسِيطٌ وَاحِدٌ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ الإِنْسَانُ يَسُوعُ الْمَسِيحُ. الَّذِي بَذَلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً لأَجْلِ الْجَمِيعِ، .." (١تيمو ٢: ٥). وتأكيد الرسول على إنسانية الوسيط هو تأكيد على انتماء الوسيط للبشر وإلى الله،

وأنه بهذه الوساطة ينقل إلينا من خلال تجسده وموته المحيي وقيامته التي داس بها الموت، الحياة الإلهية.

٤– عندما ترجمنا كتاب القديس باسيليوس "عن الروح القدس" وجدنا أمامنا حيلة الهراطقة التي أدركها المعلم الكنسي، وهي حشد الكلمات، وحروف الجر، بالإضافة إلى جمع أكبر عدد ممكن من نصوص الكتاب المقدس لإغراء القارئ. وهي ذات حيلة أريوس – أنوميوس – نسطوريوس – أوطاخي .. الكل معاً يقف خلف كلمات معينة تكتب بطريقة خاصة لكي تسد الطريق على الفهم الصحيح.

الوجه الثاني للمشكلة:

هو فهم الشركة في الطبيعة الإلهية (التأُّله) على أنها شِركٌ بالله.

وفي الحقيقة، ليس نحن الذين "أشركنا بالله"، وإنما الله هو الذي أشرك حياته وجوهره وأقانيم إلوهيته بنا عندما أرسل الآبُ الابنَ لكي يتجسد. فالتجسد دعوة للشرك في معناه الصحيح؛ لأن "المحبة في التوحيد شركٌ صحيح"[١].

لقد حصر القرآن مفردات الشركة – المشركون – الشرك، في عبادة الأصنام. وقد دعا المسلمون إلى مقاومة كل أنواع الشرك بالله، هذا موقف تاريخي لا يمكن إنكار صحته، ولكن دعوة المسيحية ليست مثل دعوة الإسلام، فقد عاشت المسيحية في عصورها الأولى زهاء ٤٠٠ سنة وبالتحديد حتى سنة ٣٩٠م وهي السنة التي أعلن الإمبراطور ثيئودوسيوس المسيحية ديانة الإمبراطورية، ولم يكن قسطنطين هو الذي

---

(١) العبارة هي للأب صفرونيوس "رسالة إلى العارفين بالله"، حيث يقول: "المحبة في التوحيد شرك صحيح لأن المحبة التي لا تُشرك ليست محبة حقيقية، وتلك التي تعلو على من يحب هي محبة باطلة، أما تلك التي تشرك المحبوب في خيرات المحب فهي محبة إلهية ودعوة صادقة لتوحيد صحيح؛ لأن التوحيد عندنا هو "شركة في الله بالروح القدس".

وضع المسيحية كديانة للأمبراطورية في ٣١٨م حسب منشور ميلان، ومع ذلك كانت دعوة الإنجيل كما قدَّمها أب لاهوتي الغرب القديس أوغسطينوس تقوم على إنكار كل أشكال الوثنية؛ لأن الإنسان الذي يصنع "إلهاً" لا يدرك أنه هو الإله، وأنه لا يجب أن يترل إلى هذا المستوى الرديء من الإدراك، ولذلك يقول أوغسطينوس:

Vos adoratis deum, qui uos facit deos, illi autem adorant deos, quos faciendo et adorando perdunt ut ipsi dii faint.

"جعلنا إلهنا آلهة ولكنهم يعبدون آلهةً خلقوها" (العظة ٦: ٣).

ودعَّم القديس أوغسطينوس هذه الرؤيا بكلمات المزمور عن الأصنام التي تُشبه البشر "لها أفواه ولا تتكلم، لها أعين ولا تبصر... ثم الأهم مثلها (الأصنام) يكون صانعوها وكل من يتكل عليها" (مز ١٣٥: ١٥ – ١٨). العبادة تحوِّل الإنسان داخلياً إلى ما يعبد، والالتصاق بالأصنام يجعل عابدي الأصنام مثل الأصنام نفسها بلا حس وبلا وعي إنساني ينمو.

هكذا يشرح أوغسطينوس العبادة الوثنية:

"تصبح النفس داخلياً على نحو ما بلا إحساس، وغبية، ويصبح مَن يعبد الأوثان مثل الوثن، يدمر في كيانه صورة الله خالقه؛ لأنه يأخذ صورةً خلقها هو لنفسه" (عظة ٦: ٥).

ولذلك علينا أن نفتح "ملف" الليتورجية بكل ما فيه، كيف تحوِّلنا الليتورجية كشركة في الله الثالوث بواسطة اتحادنا بالمسيح وبسكنى الروح، إلى ذات الحياة الإلهية التي تنسكب فينا بقوة الروح القدس.

إن الإنسان هو ما يعبد.

ضرورة التمييز التام بين الطبيعة والنعمة بسبب التجسد:

علينا أن نميِّز بشكل تام أن ما أخذته الإنسانية في المسيح هو ما حدث

للناسوت بسبب تحوله من الطبيعة الآدمية الترابية إلى طبيعة مجيدة سمائية خالدة متحدة بالله وحية إلى الأبد.

- تحوَّل الترابي ← سمائي.
- تحوَّل المائت ← خالد.
- تحوَّل الإنسان ← إلى شركة أبدية في حياة الله نفسه.
- تحوَّل الضعيف ← قوة.
- تحوَّل الفاسد ← إلى عدم فساد.

هذا التحوُّل في كيان الإنسان بدأ أولاً في المسيح، وطبعاً ليس في إلوهية الابن، بل بسبب التجسد والإتحاد وغلبة الموت على الصليب والقيامة من الأموات.

لم يحدث هذا التحول بقوة الناسوت، فقد سدَّ الرب نفسه الباب على كل مَن يدَّعي بأن الناسوت وحده قادر على أن يعطي الحياة بقوله: "الروح هو الذي يُحيي، أما الجسد فلا يفيد شيئاً" (يوحنا ٦: ٦٣).

الطبيعة الإنسانية بدون الشركة في طبيعة الله ليست خالدة ولا مجيدة ولا حية إلى الأبد. إن لم تتحول إلى ذات طبيعة ناسوت الرب نفسه بعد أن تَمجَّد لا تأخذ شيئاً، بل تبقى في الموت والفساد إلى الأبد.

-٦-

ما هو وجه الخطأ في التعليم باشتهاء الإلوهة، ورفض تألّه الإنسان؟

الخطأ الأول: هو تعبير "اشتهاء الإلوهة" نفسه؛ لأن آدم وهو مخلوق على صورة الله لم يشتهِ الإلوهة، وإنما انفرد القديس أوغسطينوس بأنه أراد أن يكون مساوياً لله. الفرق كبير بين أن يظل الإنسان صورة الله، وأن يتحول الإنسان ليكون أصلاً، وهو تحول يفقد فيه الإنسان الصورة نفسها لأنه فقد مصدر الحياة.

الخطأ الثاني: هو خطأ أفدح وأكبر بكثير من الخطأ الأول، وينتج عنه؛ لأنه يقول لنا:

* إن الحياة الأبدية طبيعة في الإنسان، فهو لا يحتاج إلى الطبيعة الأبدية التي تمنحه الحياة الأبدية.

* لأنه ينكر تحول الإنسان إلى ذات مجد المسيح، وهو مجد غير مخلوق، هو مجد اللاهوت، هو مجد اتحاد الخالد – الحي – القوي – الابن بالطبيعة، بالميت – الفاسد – الضعيف – الذي هو في الهوان، وهو ما جادت به مقارنة الرسول بولس في (١كو ١٥: ٤٠ وما بعدها).

لقد تمجَّد الإنسان بكل غنى ومجد اللاهوت كما أُعلن في يسوع المسيح، وحسب تحول الناسوت فيه: اشتركنا في مسحته – في صلبه وقيامته – في صعوده إلى السماء لأنه أجلسنا معه في السموات (أف ٢: ٦)، ولم تكن هذه هي حركة تحول الإنسان يسوع المسيح إلى إنسان مجيد قوي عظيم جالس عن يمين الآب، أي أن هذا

التحول لم يحدث لشخص يسوع لأنه إنسان، بل لأنه ابن الله المتجسد الذي حمل فيه الإنسانية كلها ونقلها فيه إلى الحياة المجيدة.

الخطأ الثالث: ودون أي مجاملة، هو تجديف صدر عن جهل، وسوف نعفي القائلين به من تهمة "التجديف عن عمد"؛ لأننا نعتقد أن ما كتبوه، كتبوه في غضب وفي سرعة ودون دراسة وفي محاولة ساخرة لإثارة الغوغاء إذ وصلت إلى حد الاتهام بالشرك الذي يحاربه الإسلام أحياناً بالعنف[١].

وهو تجديف عن جهل لأنه:

١– يمس التجسد نفسه، أي إتحاد اللاهوت بالناسوت.

٢– يهدم كل مراحل تحول الإنسانية في المسيح، ويجعل من عمل الرب يسوع إعادة الإنسان إلى سلطان الشيطان، أو ما يمكن أن نسميه بـــ"شيطنة النعمة".

٣– يفصل الإنسان عن الله، ويحول الإنسان إلى إله بالطبيعة، وبالتالي يصبح خالداً بالطبيعة لا يموت، وحياً إلى الأبد بالطبيعة غير القابلة للموت.

٤– والباقي واضح، وهو إنكار كل قوة السرائر لا سيما الإفخارستيا.

+ + +

(١) يقول الأنبا شنودة في كتاب بدع حديثة ص ١٥٩: "فهم يدعون إذن الشركة في اللاهوت!! ولعل هذا بعض مما يسميه أخوتنا المسلمون "الشرك بالله"".